مصـــر

هى الهـدف الاستراتيجى لاسرائيـــل

د. اسماعيل صبرى عبد الله

كشفت اسرائيل أخيرا ، وبصفة رسمية ، عن مطامع فى ارض مصر ، وظهر امام العالم كله جـزء مـن نوايا الصهيونية فى التوسع حيث مالم يكن منتظرا أن تتوسع اسرائيل ، ولكن أهم ما فى موقف اسرائيل هو أن يكشف امامنا نحن هنا فى مصر حقيقـة الصراع الذى نواجهه ، ويبدد كل وهم فى امكان أن يأتى يوم يطمئن فيه شعبنا واسرائيل رابضة على حدوده .

حجة ساقطة : الامن الاسرائيلى

لقد دأبت اسرائيل منذ أن وجدت على اشاعة فكرة ان امنها مهدد ، وكانت الدعايات العربية التى يغنيها عن الفعل المتطرف فى الكلام تغذى الحملة الاسرائيلية وتسهم بانتظام فى نجاحها ، وهكذا تمكنت اسرائيل فى يونيه ١٩٦٧ من أن تعتدى على الدول العربية وغالبية الرأى العام العالمى يعطف عليها لانها تتوهم أن أمن اسرائيل مهدد ، وقد ترتب على هذا الوهم الذى استقر فى الاذهان — وتسرب حتى الى أذهان البعض منا — أن السلام فى المنطقة مرهون بما تحصل عليه اسرائيل من ضمانات توفر لها الشـعور بالامن ، وخطوة بخطوة انزلقت المناقشـة الى طبيعة تلك الضمانات فاسرائيل تقول انها تتمثل فى حدود جديدة « اى من ضم اراض عربيـة جديدة . وغيرها يقترح قوة دولية ، أو التزام من الدول الاربع الكبرى ... الخ .

وحقيقة الامور غير ذلك تماما ، فليس هناك مشكلة أمن اسرائيلى أصلا ، اللهم الا اذا تخيلنا أن الكلمات يمكن أن تحل محل المدافع والصواريخ ، وثمة وقائع يجب التذكر بها فى هذا الصدد :

١ — منذ أن وجدت اسرائيل لم يقتحم حدودها جندى عربى واحد ، وعدوانها فى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ أمر معروف لا يحتاج الى اثبات ، ولكن كثيرا ما ينسى البعض أن الصـهيونية كانت معتدية أيضا فى ١٩٤٨ ، فبينما كانت الحكومات العربية الرجعية غارقة فى الهمجية دون أدنى استعداد

جدى ، هاجمت « الهاجاناه » مدن يافا وعكا وغيرها من المناطق التى قضى قرار التقسيم على بقائها جزءا من دولة فلسطين العربية .

٢ ــ فى المستوى القانونى ، كل من اسرائيل والدول العربية اعضاء فى هيئة الامم المتحدة ، ويقع فى حقها الالتزام بعدم العدوان، وبحل المشكلات بالطرق السلمية،وليست اسرائيل بحاجة الى ضمان قانونى آخر .. ولو كانت ثمة حاجة لكفى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى ينص على حق كل دولة فى المنطقة فى الحياة داخل حدود آمنة ومعترف بها .

٣ ــ فى المستوى الواقعى تؤمن علاقات القوى على النطاق المحلى اسرائيل لسنوات طويلة . فقد تمكنت الدولة الصهيونية من بناء قوة عسكرية كبيرة تثبت بالتجربة كفاءتها .

٤ ــ كما أن علاقات القوى الدولية وما تلتزم به الولايات المتحدة بالذات من الدفاع عن اسرائيل يشكل ضمانا للدولة الصهيونية لا يمكن الاستهانة به .

٥ ــ ومن الناحية العسكرية لم تعد هناك حدود آمنة تماما بسبب تطور الاسلحة الحربية،وبالذات فى مجال الطيران والصواريخ ، ومن المعروف أنه لا يوجد على ظهر الارض مكان واحد بمنأى عن الاصابة بقذائف عدد ، ولذلك فان ضم الاراضى لتوفير حدود آمنة يسوق بالضرورة الى المزيد من الضم ، فاسرائيل تطالب باستمرار احتلالها لشرم الشيخ بحجة تأمين ملاحتها فى مضايق تيران ، وهذا يثير بالضرورة اعتبار حماية وجودها فى شرم الشيخ ، ومن هنا كانت المطالبة باحتلال شريط من سيناء يمتد من العريش الى أقصى الجنوب ، مع المطالبة بنزع سلاح بقية شبه الجزيرة المصرية ... وهكذا .

٦ ــ واخيرا فان الخطر الوحيد الذى تتعرض له اسرائيل هو حركة التحرير الوطنى الفلسطينية، هو نضال الشعب المطرود من وطنه من أجل حقه فى الوجود على سطح الارض ، وهذا خطر لا يوجد أى ضمان ضده مالم تحل مشكلة فلسطين، ولا يمكن لاى شعب عربى أن يقبل أن تقوم حكومة بدور جلاد الفلسطينيين وحارس الوجود الصهيونى .

حتمية التوسع

ان دعوى الامن حجة ساقطة تتخفى وراءها المطامع التوسعية ، ان اسرائيل بالضرورة مندفعة الى ضم الاراضى الجديدة ، فالجزء الاساسى الفعال من سكان اسرائيل قادم من اوربا ، والقادمون لا يبقون فى الدولة الصهيونية ، الا اذا تحقق لهم بالقدر الادنى مستوى المعيشة الاوروبى ، والا لاصبحت « **أرض الميعاد** » فى نظر الكثيرين منفى فقيرا ، وعندئذ لابد أن تتوقف الهجرة الى اسرائيل ، بل لابد أن تنشط الهجرة منها ، لاننا بصدد قوم الفوا الهجرة والتنقل ، ولكن الارض التى قامت عليها اسرائيل محدودة الموارد للغاية ، ولا يمكن بحال من الاحوال أن توفر باستمرار مستوى المعيشة الاوروبى لسكانها ، وقد تغلبت الصهيونية على ذلك خلال العشرين سنة الاولى بفيض لا مثيل له من المعونات والاموال التى أغدقها عليها الاستعمار والحركة الصهيونية،وهذا الفيض يستحيل أن يستمر الى الابد . ومن هنا كان حكام تل ابيب فى مأزق : أما التوسع على حساب الدول العربية المجاورة ، واما تخلخل أسس البنيان الصهيونى .

بل ان هناك ديناميكية خاصة للتوسع الاسرائيلى، فالحاجة الى الارض تدفع الى التوسع،وكل توسع يستغل لجذب مهاجرين جدد لدعم الوجود الصهيونى وتنفيذ المخطط التاريخى للصهيونية ، وزيادة المهاجرين تجعل الحاجة الى التوسع أكثر الحاحا ، وكلنا نذكر تصريحات أشكول فى أكتوبر ١٩٦٧ التى دعا فيها الى بناء اسرائيل الكبرى وحدد لها هدفا عشرة ملايين من السكان، وبوسعنا أن نتخيل الارض اللازمة لايواء سكان يفوق عددهم عدد سكان سوريا ولبنان والاردن مجتمعة .

واسرائيل كأى مشروع استعمارى تجرى وراء الاهداف التقليدية للاستعمار ، وفى رأسها نهب الموارد الطبيعية للشعوب الاخرى ، ولهذا فهى لا تبغى التوسع فحسب ولكنها تطمع على الخصوص فى الاراضى التى تنتظر منها خيرات جمة ، وكلنا يعرف أن سيناء لم تمسح مواردها حتى الان مسحا دقيقا ، ولكن الدراسات الاولية تبشر بوجود موارد معدنية غنية فى مقدمتها البترول،ومن أحلام الصهيونية أن اسرائيل الكبرى لابد أن يكون على أرضها عدد من العرب يمثلون عنصر « العمل الرخيص » اذ تؤدى السياسة العنصرية الى حرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية وفرض الاجور المنخفضة والاعمال الشاقة عليهم .

وفى ضوء هذا كله نرى أن دولة اسرائيل من النيل الى الفرات « ليست مجرد تخيلات لعناصر متطرفة تعيش فى عصر غير هذا العصر ، وعلينا أن نتذكر أن مشروع **هرتزل** نفسه يجلب اليهود

من مختلف البلاد ليقيموا دولة فى قلب الوطن العربى ، استنادا الى أسطورة كانت تبدو قبل سبعين عاما أحلاما وتخيلات ، وها هى ذى دولة الصهيونية قد قامت بالفعل وتوافرت لها عناصر قوة وحملت فى كيانها جرثومة العدوان والتوسع تدفعها دفعا نحو هدف أعلنته رسميا حين رسمت على حائط مبنى الكنيست خريطة دولة صهيونية تمتد من النيل الى الفرات ، وهل تنسى أن الصهيونية تحاول تأييد مطامعها فى سيناء ، بالاستناد الى حديث **موسى** ؟

السيطرة الاقتصادية

على أن التوسع الاسرائيلى له حدود ودونه مصاعب ، فاسرائيل لا تتوسع فى خلاء ، وانما فى أرض لتعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت فى تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر فى النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية ، وربما كان مايجذب اسرائيل فى سيناء بالذات ما تشيعه دائما من انها صحراء لا يقطنها الا قلة من البدو الرحل ، ولكن الشعب المصرى يرى فيها منطقة غالية من أرض الوطن شهدت أمجادنا الخالدة ومعاركنا الفاصلة ضد الغزاة فى عصر **أحمس** الى عصر **صلاح الدين** وعلى أية حال فان اسرائيل تسعى فى الوقت ذاته الى السيطرة الاقتصادية على الشرق العربى . « **فالعقلاء** » هناك يرون انه ليس من الضرورى ان تمتد اسرائيل سياديا من النيل الى الفرات لتستكمل عناصر الاستعمار الاستيطانى بتوفير اتساع الرقعة واليد العاملة الرخيصة ، وانما يمكن أن تكون اسرائيل داخل « **حدود اقليمية معقولة** » قاعدة صناعية تسيطر اقتصاديا على المنطقة المحيطة بها دون حاجة الى احتلالها عسكريا وتحمل عبء ذلك الاحتلال ومايثيره بالضرورة من مقاومة . فالحلم الذى يردده حتى بعض اولئك الذين يتكلمون فى اسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « **التكامل الاقتصادى** » للشرق الاوسط على أساس أن تكون اسرائيل قاعدته الصناعية ، وتكون الاقطار العربية مورد المواد الاولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية ، فالصناعة الاسرائيلية فى أمس الحاجة الى المواد الاولية التى تزخر بها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الاموال الاستعمارية الضخمة التى تستطيع تعبئتها ، وسوق اسرائيل الداخلية ضيقة لاتستوعب انتاجا يذكر ، والمنافسة فى الاسواق الاوروبية والامريكية عسيرة ، ومن ثم كان أمل اسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية بعشرات الملايين من سكانها وبما نملكه من موارد مالية ، انتاجها الصناعى ، وليس هذا مجرد استنتاج أو استقراء للنوايا . فالمسئولون فى تل أبيب يرددونه ، وحتى حين يكتب بعضهم فى الصحف الاجنبية مظهرا الرغبة فى تحقيق التعايش السلمى مع العرب لا يتردد فى التصريح بذلك ، فهذا الاقتصادى الاسرائيلى **شارل مزراحى** يكتب فى مجلة « اسبرى » الفرنسية (عدد سبتمبر ١٩٦٦) فى غير مواربة : « **ان البلاد العربية تنتج البترول والقطن وغيرهما من المواد الاولية التى تحتاج اليها الصناعة الاسرائيلية ، ونحن نملك من أسباب التقدم التكنولوجى ما يسمح لنا بتصنيع تلك المواد وتزويد الاسواق العربية بما تحتاج اليه من منتجات صناعية** » . وفى ذهن قادة الاقتصاد الاسرائيلى ذكريات فترة الحرب العالمية الثانية ، حين نشأت الصناعات اليهودية الاولى فى فلسطين ، واهمها الادوية ، وكان انتاجها يباع فى الاسواق العربية بفضل قرارات « مركز تموين الشرق الاوسط » البريطانى .

بل أكثر من ذلك يمكن — فى نظرهم — أن تصبح اسرائيل بمثابة « **كنتوار** » للاحتكارات العالمية تقيم فيها المصانع للتجميع والتركيب والتجهيز للكثير من منتجاتها التى تبيعها بالفعل فى الاسواق العربية ، كما تطمع اسرائيل فى أن تلعب دور الوسيط فى تصريف حاصلات ومنتجات البلاد العربية فى أوروبا الغربية وأمريكا ، وبهذا كله **تصبح حيفا وتل أبيب** منفذ المنطقة كلها الى العالم الخارجى ، وتضرب فى طريقها الاقتصاد اللبنانى الذى يعتمد بشكل أساسى على تجارة الترانزيت وأعمال الوساطة .

وبعبارة اخرى تعرض اسرائيل علينا كأساس للسلام والوئام « الميثاق الاستعمارى » الذى فرضه الاستعمار على كل المستعمرات فى القرون الماضية ، والخلاف بين « المتطرفين » والمعتدلين فى تل أبيب ليس خلافا حول الهدف ، وانما حول الوسائل ، فأولئك يريدون فرض الميثاق الاستعمارى بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم ، وهؤلاء يرون أن هذا الاسلوب يجافى روح العصر ، ومن ثم لابد من الاعتماد على أساليب الاستعمار الجديد التى تخدم بقدر الامكان مظاهر الاستقلال السياسى للدول الخاضعة للاستغلال ، ثم تحيطها بشبكة كثيفة من الروابط الاقتصادية التى تزيد ما يقع على شعوبها من استغلال .

مصر هى العقبة الكبرى

وواضح أن العقبة الاساسية أمام كل التخطيط الصهيونى هى مصر ، فامكانياتها البشرية والاقتصادية والحضارية تجعلها الدولة العربية الوحيدة القادرة على الصمود فى مواجهة عسكرية مع اسرائيل ، وقد زاد خطر مصر بتفجر الثورة

على ضفاف النيل وانطلاق شعبنا بخطوات ثابتة فى طريق التقدم الاقتصادى والاجتماعى واسترداد مصر لوجهها العربى ايمانا منها بأن مصيرها مرتبط بمصير شقيقاتها العربيات ، رباطا اعمق من كل الخلافات وادوم من كل الحكومات واعرق من كل الفرق والاتجاهات لانه رباط التاريخ والحضارة والمصلحة المشتركة ، ولذلك فان اسرائيل تدرك أن أمام اى توسع اقليمى لابد من أن يحسب حساب رد فعل القاهرة ، ولسنا فى حاجة هنا الى الاستشهاد بتصريحات زعماء اسرائيل ، ويكفى دليلا على ذلك الوقع المر للساحة العربية حيث تكاد القوات المسلحة المصرية تتحمل وحدها عبء المواجهة ».

وفى المدى الطويل يشكل تصنيع مصر التحدى الاساسى لاحلام السيطرة الاقتصادية التى تداعب تل ابيب ، فان لهذا النظر من الموارد البشرية وفى العراقة الحضارية ومن الموقع الجغرافى ما يؤهله لان يكون بلدا صناعيا بمعنى الكلمة تقف صناعته فى وجه غزو الصناعة الاسرائيلية للمنطقة ».

ولكل ذلك تركز اسرائيل كل جهودها ضد مصر ، فاما أن تقهرها عسكريا وتحطم فيها ارادة المقاومة واما ان تستدرجها الى المفاوضة ، وعقد معاهدة صلح تنهى ارادة المقاومة وتسجل الاستسلام ، ان اصرار اسرائيل على احتلال شرم الشيخ ليس الغرض منه ضمان الملاحة فى خليج العقبة وانما اجبار مصر على التسليم فى جزء من أرضها ، واستخدام هذا الجزء فى النيل من أعماق البلاد فى الصعيد فى أى صدام مسلح جديد ، والحاح تل أبيب على المفاوضة وعقد معاهدة صلح يمهد فى نظرها لتبادل العلاقات الدبلوماسية وانشاء علاقات اقتصادية ، اى فتح الطريق أمام سيطرة اسرائيل اقتصاديا على المنطقة كلها ، وعلينا أن نعى معنى كلمة جولدا مائير .. « **لن يكون هناك سلام فى المنطقة الا حين يكون بوسعى أن أذهب فى سيارتى من تل ابيب الى القاهرة فى اى وقت** » اننا لا نخوض معركة تضامن مع الشعب الفلسطينى فحسب ، وانما نحن نخوض أولا وقبل كل شىء معركة دفاع عن مصر نفسها ، عن أرضها ، عن حقها فى التطور المستقل ، عن مستقبل الاجيال القادمة من أبنائها ، وعلينا ونحن نسعى للتسوية السياسية الا ننسى لحظة واحدة حقيقية نوايا العدو ، وأن نأخذ فى يومنا الاحتياط لغدنا ، وان معركة مريرة اليوم يمكن أن تكون أهون بكثير مما نعانيه فى الغد لو خدعنا فى نوايا العدو ومكنا له حيث يريد مواقع للقفز ، غدا نحو ما هو أوسع وأعمق ».